القلمون في العصر الروماني البيزنطي

بقلم : الأب نصر الله

تعريب وتلخيص : جورج حداد

(خلاصة للمقال المنشور في القسم الغربي من المجلة)

هنالك وثائق مكتوبة مختلفة بين دينية ومدنية وكذلك كتابات وأبنية أثرية تساعد في وصف حياة احدى مقاطعات الامبراطورية الرومانية وخاصة البيزنطية . أضف الى ذلك بعض مؤلفات الكتاب المختلفين المتعلقة ببعض المقاطعات الأخرى والتي لم تذكر شيئاً عن القلمون . ذلك أن القلمون كانت منطقة منعزلة على الحدود الرومانية بعيدة عن المدن الكبرى التي نشأت فيها الحضارة الرومانية ولمعت ، ولذلك لم تذكرها المؤلفات الا عن طريق بعض الموظفين الذين يمثلون السلطة المركزية أو عن طريق بعض الجنود الذين يحرسون حدود الصحراء . ولم يظهر في القلمون خطيب ولا فيلسوف ولا مؤرخ في هذا العصر ، كذلك لم تنجب أي كاتب ديني . وبقيت الآرامية لغة السكان بينما كانت اليونانية واللاتينية لغة جماعة قلائل . أما المؤرخون فانهم لم يعلموا بوجود هذه المنطقة . على أننا نجد بعض معلومات مفيدة في كتابات جغرافيي هذا العصر . فهنالك جغرافية بطليموس ، ورحلة أنطونينوس ، ووصف العالم الروماني لجرجس القبرصي التي تعطينا معلومات عامة عن هذه المنطقة وتقسيماتها الادارية وأهم مواقعها وتكمل هذه المعلومات لائحة بوتنجر . وهنالك وثائق عسكرية تعلمنا عن الحاميات المكلفة بحراسة الحدود في العصر الذي انقسمت فيه الامبراطورية الى قسمين . والمعلومات الدينية تفيدنا عنها لوائح المجامع الكنسية وهي قليلة لسوء الحظ حيث هنالك ذكر أسقف أو مركز كنسي من وقت الى آخر .

ان تنظيم هذه الوثائق المختلفة وتفسيرها على ضوء البقايا الأثرية لذلك العصر تساعدنا في بعث حياة منطقة من مناطق سورية الرومانية البيزنطية في عصر من أزهى عصورها .

لقد أصبحت سورية مقاطعة رومانية في عام ٦٤ ق.م وكان مما فعله بومبيوس أنه ترك بعض المناطق تحت حكم أمرائها بشرط أن يدفعوا الجزية وذلك الى أن تعتاد على نظام الحكم الروماني . وقد كانت القلمون قبل الفتح الروماني أي منذ عام ٨٥ ق.م من ممتلكات أمير وطني عرف باسمه اليوناني « بطليموس بن منايوس » وكان ينازع ورثاء هذا الأمير على السلطة في القلمون الأسرة الهسمونية التي حكمت في فلسطين . وأخيراً في عام ٦٩ م دخلت القلمون والمنطقة التي تقع فيها تحت حكم الرومان المباشر . وعندما انقسمت المقاطعة السورية الى قسمين في عهد سبتيموس سفيروس في نهاية القرن الثاني كانت القلمون من أجزاء القسم الجنوبي المعروف بسورية الفينيقية ، وكان يمثل الحكام الرومان فيها موظفون يتمتعون بسلطة عسكرية ومدنية . وفي منطقة « الضمير » وجدت كتابة أثرية تذكر أحد هؤلاء الموظفين من عهد الأمبراطور ماركوس أوريليوس واسمه ايليوس هركولانوس .

وكانت يبرود التي يذكرها الجغرافي بطليموس باسم « يبرودا » أهم بلدة في القلمون ويشهد بذلك معبد جوبتر وقلعتها ومدافنها . وكانت مجموعة المساكن اليونانية تقع على المرتفع الأوسط عند ملتقى وادي قرينا ووادي سكفتا . وبما أن السكان كانوا حريصين على الأراضي الزراعية الكائنة حول المساكن القديمة ، فقد امتدت البيوت الجديدة حول المرتفع حيث بني المعبد الوثني الذي أصبح كاتدرائية فيما بعد ، وقرب هذه المنطقة بنيت الأسقفية . وبجانب مدينة الأحياء امتدت المدافن في المنطقة المعروفة « بالتلة » . وقد اكتشفت بعض مصابيح رومانية وقطع من خشب الأرز ، وهي غالباً بقايا أحد التوابيت . وكذلك وُجدت مقبرة أخرى على المنحدر الشمالي لوادي سكفتا . وقد أزيلت بقايا المغاور التي كان يسكنها إنسان العصر الحجري في وادي سكفتا وحفرت فيها قبور عديدة . ومن أهم المدافن التي اكتشفت ذلك المدفن الذي حفر في سفح المرتفع الواقع في غربي الوادي . ويحتوي المدفن قاعتين وغرفة للدفن . أما هذه الغرفة الأخيرة ففيها سبعة عشر قبراً ، ويحرس مدخلها أسدان الواحد واقف والآخر جالس . وقرب مدخل الغرفة صفان من الأنصاب . ويقول الأب رونسفال الذي درس هذا المدفن انه من العصر الروماني ويعتقد أن تاريخه بين القرنين الثاني والرابع ، ويظهر أنه لم يستعمل بعد القرن الرابع . أما الأشخاص الذين دفنوا فيه ، فليس هنالك كتابة توضح هويتهم ، وقد يكونون من رجال الدين الذين يهتمون بمعبد « جوبتر ملك يبرود » ، أو ربما من العائلات الوجيهة في تلك المنطقة .

وفي القرن الأول الميلادي كان الحكم غير مستقر في القلمون بسبب تغير الحكام ، وهذا ما أدى إلى بعض الاضطرابات الداخلية والى اعتداء بعض أصحاب النفوذ على حقوق الآخرين . ويطلعنا على هذه الحالة بوضوح نقش أثري محفوظ في يبرود على حجر في جدار منزل المدعو أنيس الزحلاوي . وقد كان الحجر بالأصل في بناء معبد جوبتر . والنقش هو عبارة عن قرار أصدره الملك اغريبا الثاني بناء على طلب جماعة من السكان ضد" شمسيجراموس الذي اغتصب السلطة الدينية وراح يستغل سلطته لتبديد أموال المعبد والاعتداء على مختلف الأشخاص . وقد صدر الحكم عليه باعادة ما اغتصبه تحت طائلة العقاب الذي نجهله .

لقد تبارى علماء الآثار في تعيين المواقع التي ذكرها الجغرافي بطليموس في منطقة تدمر . ولقد رأى دوسّو وبوادبار أن موضع النبك الحالي هو موقع كسما **Casama** الذي ذكره بطليموس ، بينما رأى آخرون أنها تقابل مواقع أخرى . على أن الواقع هو أن النبك كانت تسمى بنفس الاسم في العصور القديمة ، وكذلك كانت يبرود . ولنا برهان واضح على ذلك في مخطوط سرياني من المتحف البريطاني من عهد الملك الغساني المنذر بن الحارث في القرن السادس . ويذكر المخطوط ديراً لرهبان مار موسى واقعاً شرقي النبك . واليوم لا نشاهد أثراً يذكر من آثار النبك في العهد الروماني ، لأن منازلها المبنية بالآجر اندثرت . وكان يقوم حصن على الرابية المطلة على النبك ، وقد استعملت حجارة هذا الحصن في بناء السراي أو دار الحكومة التي شيدت في أواخر القرن التاسع عشر . ولم يبق إلا اسم هذه الرابية ، وهي رابية البرج . ومنذ نحو خمسين سنة اكتشف القرويون قبوراً قرب موقع الحصن ، ووجدت فيها مصابيح من العصر الروماني .

أما موقع كسما الوارد في جغرافية بطليموس فقد رأى علماء مختلفون منهم هونيغمان وهارتمان أنه يقابل دير عطية التي تقع على بعد تسع كيلومترات الى شمال شرقي النبك . وبقايا هذه البلدة من العصر الروماني تقع في القسم الشمالي في « حارة التحتا » . وفي هذه المحلة بنت السيدة صالحة خاتون ابنة الأمير صلاح الدين منزلها ، وهي مؤسسة البلدة الحديثة .

بعد موقع كسما يذكر الجغرافي بطليموس موقعي ادمانا **Admana** واتيره **Atera** . وقد رأى العالم دوسّو أن ادمانا تقابل موقع القسطل على بعد اثني عشر كيلومتراً جنوبي النبك .

على أننا نعتقد أن اسم بلدة القسطل مشتق من كستلوم Castellum (أي حصن) وأن البلدة كانت محطة محصنة على طريق رومانية كانت تجتاز هضبة القلمون الثانية . وقد بقي باب هذا الحصن حتى نهاية القرن الماضي ، وكانت تقيم فيه إحدى الحاميات الرومانية . أما موقع « ادمانا » فيغلب أنه في خرائب « دنها » الكائنة جنوب غربي القسطل .

وأما « أتيره » فانها نفس القطيفة التي لم يبق من آثارها الرومانية سوى بعض الحجارة القديمة التي استعملت في العصرين الأيوبي والعثماني .

ويذكر الجغرافي بطليموس مواقع شمالي كسما ، وهي آوريا Aueria وجواريا Goaria ودانوبا Danoba . فاذا كانت كسما هي دير عطية ، وجواريا هي قارة ، فان آوريا تقع بينهما ونقترح أن يكون موقعها إما « البريكة » الكائنة على بعد خمس كيلومترات شمالي دير عطية ، أو « الحميرة » الكائنة على بعد اثني عشر كيلومتراً . ومعظم علماء الآثار يقرون أن جواريا هي قارة الواقعة على ١٧ كيلومتراً شمالي النبك . وتدلنا خرائب قارة أنها كانت من أهم مراكز القلمون كما كانت يبرود ومعلولا . وكانت البلدة القديمة في شمالي البلدة الحالية . ولم يبق منها إلا القليل ، منها قواعد حجرية كبيرة بين الطاحون الغربية والمسجد ، وحجارة استعملت في بناء الخان الجنوبي ، وأقنية مختلفة للمياه . وسنرى أن البقايا كثيرة من العصر البيزنطي . وفي شرقي البلدة كانت المدافن التي حفرت في مرتفع كلسي طري . وهذه المدافن ترجع الى العصر الروماني ، كما تشهد بذلك بقاياها من مصابيح وأدوات زجاجية وأشياء مصنوعة من الذهب والفضة . وقد استعملت هذه المدافن في العصور التي تلت .

أما موقع « دانوبا » فان له أهمية في تاريخ القلمون الديني . ذلك أن بعض لوائح آباء الكنيسة تذكر بين موقعي قرارات مجمع نيقية « أسقف دانوبا » . فاذا كانت دانوبا هي صيدنايا فان ذلك معناه أن النصرانية امتدت بسرعة منذ القرن الرابع الى مختلف جهات القلمون . والذين يجعلون موقع دانوبا في صيدنايا الحالية معظمهم من الكتاب الدينيين ومن مؤرخي الكنيسة مثل البطريرك مكاريوس والأب قسطنطين الباشا وغيرهم ، وليس هنالك ما يؤيد رأيهم . وقد رأى بعض المؤرخين وعلماء الآثار غير ذلك وقالوا : إن موقعها شمالي القلمون ، واعتقد البعض أنها صدد الحالية ، وقال آخرون — ومنهم دوسّو — : إنها مهين ، كما قال غيرهم إنها الحفر . على أننا نميل الى رأي دوسو وهو أن دانوبا هي مهين ، لأنها طالما أن موقعها على طرق دمشق —

تدمر ، فان صيدنايا والمواقع الأخرى المفترضة ليست على تلك الطريق . والموقع الذي يجب البحث فيه عن دانوبا يجب أن يكون بين قارة والقريتين طالما أن لائحة بوتنجر تقول : إن آخر محطة قبل تدمر هي نزالة Nezala التي أجمع الرأي على أنها القريتين . ومن جهة أخرى فان خرائب مهين المسيحية ذات شأن وتؤيد أهمية دانوبا التي كان أسقفها يحضر مجمع نيقية .

ومهين ليست قسماً من القلمون ولكنها لا بد أنها أثرت على القسم الشمالي من القلمون خاصة وقد كانت مركز الفرقة الرومانية الثالثة المعروفة بالغالية التي كانت تراقب المنطقه السكائنة بين دمشق وتدمر .

وهنالك ذكر في لوائح الطرق الرومانية لبعض المحطات بين حوارين ونابلس . وأول هذه جيرودا Géroda ثم تلسيا Thelseae . ويُجمع العلماء اليوم بأن جيرودا هي جيرود الحالية نظراً للتشابه في الاسم والموقع الجغرافي . وتقع جيرود على بعد عشرين كيلومتراً شرقي القطيفة وقد وجدت فيها بعض الآثار من العصر الروماني . أما « تلسيا » فقد اختلفت الآراء في موقعها فقال دوسو إنها « الضمير » ، وقال هرتمن ولامنس إنها « بير المعلولية » ، وقال شابو إنها القطيفة . ويتضح من المصادر أنها كانت ذات أهمية دينية وعسكرية ، ولا شيء في بير المعلولية وفي القطيفة يدل على هذه الأهمية . أما الضمير فان أهميتها الستراتيجية معروفة . ويستعين دوسو بكتابة أثرية وجدت فيها حيث ورد ذكر رجل أنه « من تلسيا » Thelseïnos ليؤكد بأنها الضمير . على أن ذكر نسبة الرجل الى هذه البلدة على نقش أثري يدل على أنه ليس من سكان هذه البلدة ، إذ لو كان من سكانها لما كانت هنالك حاجة لذكر أصله ولتعريفه على هذا الشكل . ومن جهة أخرى فاننا نميل الى أن تكون « الضمير » بلدة « أدمدرا » Admedera القديمة المذكورة في إحدى اللوائح الجغرافية . ولهذا فاننا نعتقد بأن « تلسيا » هي بلدة المعضمية وتقع على بعد أربع كيلومترات شرقي القطيفة على طريق القطيفة — جيرود ، ويظهر أنها كانت ذات أهمية دينية ، وأن اسمها « المعظمة » أصله أنه كان فيها دير عظيم .

أما الضمير « أدمدرا » فانها كانت موقعاً مهماً منذ القرن الأول ، وتقع الى أقصى حدود التوسع النبطي ، كما يشهد أثر تذكاري نبطي اكتشف فيها منذ عام ١٨٨٥ . وكان يمرّ بها طريقان مهمان أولهما الطريق المسمى باسم الأمبراطور ديوكليسان ، والآخر طريق تدمر — دمشق

الذي عبر بجيرود . ومنذ عهد الأمبراطور ماركوس أوريليوس كان فيها حامية وتحصينات هامة تحميها من جهة الشرق . وكان هنالك معبد في الضمير يرجع تاريخه إلى ١٥ تشرين الأول عام ٢٤٥ . وفي العهد البيزنطي عندما عهد بحراسة الحدود الى الغساسنة أصبحت الضمير إحدى قواعد ملوك بني غسان الذين بنوا فيها حصناً من جهة الجنوب يسمى البرج ، وقد وجدت فيها كتابات أثرية متعددة .

« يتبع »

